wadod.org

الذخائر

مجلة فصلية محكمة

تعنى بالآثار والتراث والمخطوطات والوثائق

السنة الأولى – العدد الأول – صفر ١٤٢٦ / ٢٠٠٥

في هذا العدد:

- التفسير الديني في المعتقدات العراقية والمصرية القديمة ..... أ. صالح جبار القريشي
- جنان الجناس، تصنيف خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤ هـ)
  حققه على نسخة فريدة ..... أ. هلال ناجي
- زهير بن جناب الكلبي، حياته وشعره: ..... دراسة وتحقيق: أ. قيس كاظم الجنابي
- شعر المأمون العباسي: ..... دراسة وتحقيق: أ. حسين عبد العال اللهيبي
- مقادير الأوزان والنصب الشرعية.لابن أبي السداد الباهلي المالقي(ت٧٠٥هـ)
  تقديم وتحقيق ..... أ. رشيد العفاقي
- المسكوكات الكوفية – القسم الثالث ..... أ. كامل سلمان الجبوري
- فهرس مخطوطات مكتبة الروضة الحسينية – القسم الثالث ..... أ. سلمان هادي آل طعمة
- الحرب والقتال في شعر أبي تمام ..... أ.د. مزهر السوداني
- أنباء التراث
  إصدارات ..... هيئة التحرير

wadod.org

wadod.org

الحرب والقتال في شعر أبي تمام

❑ الدكتور مزهر السوداني

لقد اجتمعت عدة أسباب واتفقت لتجعل من أبي تمام أشهر من وصف الحرب في أدب العرب بعد أبي الطيب المتنبي. فهو ـ أولاً ـ عربي طائي[1] والحرب جزء من حياة العرب، وهذا أدبهم وشعرهم ـ وهو ديوانهم ـ لم يخل في أي عصر من شعر حربي، حتى قال باحث معاصر عن القبيلة العربية: إنها لم تعرف في بيوتها واحداً لم يجرح، أو لم يكن ذا صلة قريبة أو بعيدة بيوم من الأيام، أو وقعة من الوقائع[2]. وهو ـ ثانياً ـ قد ولد ونشأ في بلاد الشام، وهو إقليم ظل مضطرباً قلقاً منذ أن انتقلت السلطة العربية منه إلى العراق عند قيام الدولة العباسية، وفي كتب التاريخ ومنها الطبري وابن الأثير ذكر للعديد من الثورات ضد الحكم العباسي[3]، حتى قال أحد الشاميين للمأمون غاضباً: يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان..[4].

ويلاحظ ـ ثالثاً ـ أن معظم شعر أبي تمام قد نظم في عهد الخليفتين المأمون والمعتصم، وهو عهد سالت فيه دماء كثيرة، منها مع الروم البيزنطيين معركة

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر ٢١٩، أبو تمام الطائي للبهبيتي.

(٢) شعر الحرب في أدب العرب ٤١.

(٣) الطبري ٧١١/١١، ١٣٢٠، ابن الأثير ٨١/٦، ٩٠، ١٩٥.

(٤) طيفور ١٤٦.

wadod.org

عمورية[٥]، ومنها الحرب ضد بابك الخرمي التي استمرت أكثر من عشرين سنة[٦]. وقد مدح أبو تمام أربعة من قواد هذه الحرب[٧]، ورثى قائداً خامساً سقط شهيداً فيها[٨]، ولذلك صدق من قال: إن شعر أبي تمام مصطبغ بالدم، كما كان عصره مصطبغاً بالدم، ولا يكاد يثير شاعريته شيء كما تثيرها الحروب والدماء، وأجمل شعره وأعرقه في الشاعرية هو ذلك الذي يصف فيه خراباً أو تحريقاً..[٩].

وأبو تمام ـ رابعاً ـ عاش في مصر مدة من صدر شبابه، وفيها نظم أولى قصائده كما يقول أبو بكر الصولي[١٠].

لقد شهدت مصر البدايات الأولى لشعر الحرب والقتال الذي نظمه أبو تمام، ولكن تفاصيل حياة الشاعر في مصر غامضة ولذلك يبدو موقف الشاعر متناقضاً، لأننا لا نملك سوى ديوانه الذي نعرف منه موقف الشاعر من الأحداث التي عاصرها؛ فمثلاً ينص الديوان على أن الشاعر قال يهجو والي مصر عيسى الجلودي ويصف هزيمته أمام الثائرين من رجال القبائل سنة ٢١٤ هـ:

[من الكامل]

قل للجلودي الذي يده ... ذهبت بمال جنوده شعبا
الله أعطاك الهزيمة إذ ... جذبتك أسباب الردى جذبا
وافتك خيل لو صبرت لها ... لنهبن روحك في الوغى نهبا
من حي عدنان واخوتهم ... قحطان لا ميلاً ولا نكبا[١١]

والقصيدة واضحة الدلالة على أن الشاعر يقف إلى جانب رجال القبائل شامتاً وساخراً من الوالي المهزوم، ولكن أبا تمام وفي السنة ذاتها ـ ٢١٤ هـ ـ يرثي

---

(٥) شرح ديوان أبي تمام للتبريزي ١/٤٠.
(٦) ابن الأثير ٦/١٧٦.
(٧) شرح ديوان أبي تمام ٣/٣١٦، ٢٩٧، ٢/٣١٩، ٣٥٩.
(٨) شرح ديوان أبي تمام ٤/٧٩.
(٩) أبو تمام الطائي ٢٠٤.
(١٠) أخبار أبي تمام ١٢١.
(١١) شرح التبريزي ٤/٣٢٠.

wadod.org

الوالي عمير بن الوليد وقد قتله أهل الحوف العرب الثائرون بقصيدتين مطلع الأولى[١٢]: [من الوافر]

أعيدي النوح معولة أعيدي ... وزيدي من بكائك ثم زيدي

ومطلع الأخرى[١٣]: [من الكامل]

كف الندى أضحت بغير بنان ... وقناته أمست بغير سنان

إن هذين المطلعين يشيران بوضوح إلى أن موقف الشاعر من عمير بن الوليد مغاير تماماً لموقفه من عيسى الجلودي، على الرغم من كون الرجلين ليسا عربيين من ناحية، وأن الثائرين المتمردين في الحالتين من عرب مصر.

ويزداد الباحث حيرة حين يطالع في كامل ابن الأثير أن قائد المأمون محمد بن حميد الطوسي قد قتل في حرب بابك سنة ٢١٤ هـ[١٤] لأن الديوان ينص على أن الشاعر قد رثاه بقصيدة طنانة مطلعها[١٥]: [من الطويل]

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر ... فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

إن هذه القصيدة من روائع أبي تمام الخالدات، فكيف نصدق بأن الشاعر نظمها في سنة واحدة مع شعره الذي مرّ في الجلودي وعمير بن الوليد؟

إن الصراع والنعرات العشائرية التي كانت تعج بها الساحة المصرية، هي التي حملت أبا تمام الشاب على الافتخار بأيام قبيلة طيء، وتعداد مآثرها وبطولة رجالها كقوله: [من الطويل]

بنجدتنا ألقت بنجد بعاعها ... سحاب المنايا وهي مظلمة كدر

بكل كمي نحره غرض القنا ... إذا اضطرت الأحشاء وانتفخ السحر

فاعجب به يهدي إلى الموت نحره ... واعجب به إذ: كيف يبقى له نحر

يشيعه أبناء موت إلى الوغى ... يشيعهم صبر يشيعه نصر

كماة إذا ظل الكماة بمعرك ... وأرماحهم حمر وألوانهم صفر

---

(١٢) شرح التبريزي ٤/٥٥.

(١٣) شرح التبريزي: ٤/١٤٤.

(١٤) ابن الأثير: حوادث سنة٢١٤ هـ.

(١٥) شرح التبريزي: ٤/٧٩.

wadod.org

بخيل لزيد الخيل فيها فوارس ... إذا نطقوا في مشهد خرس الدهر (١٦)

وقال في قصيدة ثانية : [من الطويل]

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم ... وسمي فيهم وهو كهل ويافع
سما بي أوس في السماء وحاتم ... وزيد القنا والأثرمان ورافع
أصارت لهم أرض العدو قطائعاً ... نفوس لحد المرهفات قطائع
بكل فتى ما شاب من روع وقعة ... ولكنه قد شبن منه الوقائع
إذا ما أغاروا فاحتووا مال معشر ... أغارت عليهم فاحتوته الصنائع (١٧)

إن هذا الفخر العارم بأمجاد طي وبعث بطولات رجالها ، والإشادة بأيامها لم يتكرر بعد ذلك في ديوان أبي تمام ، فقد تجاوز الشاعر المرحلة المصيرية وعلمته الدنيا أن لكل مقام مقالاً ، ولذلك غلب على فخره بعد مصر الإشادة بصبره على المكاره وعلو منزلة شعره ، مع مراعاة الظروف الجديدة التي انغمس فيها ، وخاصة في العراق أيام الخليفة المعتصم حيث البلاط العباسي وتلك العناصر الأجنبية التي احتلت مراكز مهمة فيها ، ولذلك يمكن أن نشير إلى ثلاثة أنواع من شعره الحربي في هذه المرحلة وهي :

١. شعر الحرب في مدائح الخليفتين المأمون والمعتصم:

لم يعرف عن المأمون الميل إلى الفروسية وحسن استعمال السيف كما عرف عن أخيه المعتصم ، ولكن المأمون يمثل قمة الدولة العباسية ، وهي دولة كثرت فيها الحروب في القرن الثالث ، ولابد للخليفة أن يجهز الجيوش ويسند قيادتها إلى الأكفاء من قادته ، ولذلك مدح أبو تمام المأمون ، وأشار إلى تأخر غزواته لبلاد الروم في قصيدة مطلعها : [من الكامل]

دمن ألم بها فقال سلام ... كم حل عقدة صبره الإلمام (١٨)

---

(١٦) شرح التبريزي: ٤/٥٧٥ – ٧٦.
(١٧) شرح التبريزي: ٤/٥٨٤ – ٨٨.
(١٨) شرح التبريزي: ٣/١٥٠.

wadod.org

إن أبيات هذا المطلع قد أثارت إعجاب النقاد وفي طليعتهم خصم أبي تمام الآمدي[١٩] ويغلب على الظن أن هؤلاء النقاد نظروا إلى هذا المطلع بمعزل عن غرض القصيدة الأصلي وهو ما فعله جيش المأمون بالروم، وهي الأبيات التي أولها:

لما رأيت الدين يخفق قلبه ... والكفر فيه تغطرس وعرام

أوريت زند عزائم تحت الدجى ... أسرجن فكرك والبلاد ظلام

فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه ... حسن اليقين وقاده الإقدام

لقد عودنا أبو تمام في أشهر قصائده الحربية التي مدح بها المعتصم أن يسقط المقدمة الغزلية ومنها قصائده: [من البسيط]

السيف اصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

وكذلك: [من الكامل]

آلت أمور الشرك شر مآل ... وأقر بعد تخمط وعيال

وكذلك قصيدته في الإفشين:

بذ الجلاد البذ فهو دفين ... ما إذ به إلا الوحوش قطين

فلماذا خرق أبو تمام هذا التقليد وهو يمدح المأمون؟ أرجح أن تطور الزمن وحرص الشاعر على التجديد، وكذلك لأن المأمون خليفة عالم، على حين كان المعتصم خليفة حرب وقتال، ولذلك حرص الشاعر أن يقدم لمديح في المأمون بتمهيد يمتاز بحلاوة الروح وإطالة النظر في العاطفة وتتابع الفكرة ونضج الشعر والمزج بين وصف جمال الطبيعة والغزل..[٢٠] ومع ذلك أرى أن الانتقال من الغزل إلى الحرب والجيش فيه نشاز وعدم انسجام، ولذلك حاول الشاعر أن يخفف من أثر هذا الانتقال بين نقيضين فجاء بأبيات هي بمثابة جسر يربط بين شطري القصيدة وهي الأبيات التي أولها: [من الكامل]

الله أكبر جاء أكبر من جرت ... فتحيرت في كنهه الأوهام

من لا يحيط الواصفون بقدره ... حتى يقولوا قدره إلهام

---

(١٩) الموازنة ٢/١٦٠، مقدمة القصيدة العربية: ٢٢١.

(٢٠) أبو تمام الطائي: ١١٤.

wadod.org

إن عدد الأبيات التي وصف فيها أبو تمام الحرب في هذه القصيدة يبلغ ٢٠ بيتاً تبدأ من البيت ٢٩ وتنتهي بالبيت ٤٨ . .[٢١]

ويلاحظ أن هذه الأبيات العشرين قد قسمها أبو تمام على ثلاثة موضوعات لها صلة بالحرب، فوصف ضخامة الجيش وجنوده في تسعة أبيات، ووصف الأسرى من كبار القادة في خمسة أبيات، ووصف الموقعة ذاتها في أربعة أبيات هي قول أبي تمام:

حتى نقضت الروم منك بوقعة ... شنعاء ليس لنقضها إبرام
في معركٍ أما الحمام فمفطر ... في هبوتيه والكماة صيام
والضرب يقعد قرم كل كتيبة ... شرس الضريبة والحتوف قيام
ففصمت عروة جمعهم فيه وقد ... جعلت تفصم عن عراها الهام

ويبدو واضحاً أن هذا القسم الأخير هو أضعف أقسام القصيدة، فلم يزد الشاعر فيه على حشد الطباق بطريقة تبدو ساذجة، كما في النقض والإبرام والإفطار والصيام والقعود والقيام، وهكذا لم يستطع الشاعر أن يحلق و يبدع في هذا الجانب، على الرغم من إحسانه المشهور في وصف حروب المعتصم كما سيأتي[٢٢].

إن علاقة أبي تمام الشاعر العربي الطائي بالخليفة المعتصم تثير التساؤل، وتدعو إلى التفكير في صحة ما يقال عن قلة محصول هذا الخليفة الثقافي من جهة، وعن تقريبه واعتماده الكبير على الأتراك من جهة ثانية[٢٣]. لقد مدح أبو تمام الخليفة المعتصم بشعر كثير يلفت النظر قياساً على فترة حكمه، ولذلك حق لباحث معاصر أن يدعو أبا تمام بشاعر الخليفة المعتصم[٢٤].

إن أشهر انتصارات المعتصم التي سجلها أبو تمام هما القضاء على ثورة بابك الخرمي بعد أن استمرت عشرين سنة وفيها نظم أبو تمام لاميّته الكبرى وهي أطول قصائد الديوان ٨٨ بيتاً: [من الكامل]

---

(٢١) شرح التبريزي: ٣/١٥٥-٧.
(٢٢) لابد من مراعاة عمر الشاعر عند نظم القصيدة.
(٢٣) أخبار أبي تمام: ٢٦٧، أعتاب الكتاب: ١٣٤.
(٢٤) ينظر كتاب الدكتور عمر فروخ: أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم.

wadod.org

آلـت أمـور الشـرك شـر مـآل وأقـر بعـد تخمّـط وصيـال

واللامية الصغرى :

غدا الملـك معمـور الحـرا والمنـازل منور وحف الروض عذب المناهل

وبعد القضاء على بابك حدثت معركة عمورية ضد الروم، وقد خلدها أبو تمام بالبائية المشهورة : السيف أصدق أنباء . . .

وقد يكون هذا التطويل أو التأكيد على حروب بابك سببه طول مدة الحركة البابكية من جهة، ولأنها كانت بوابة النصر العظيم الذي تلاها في عمورية من جهة ثانية . وغير مستبعد أن تكون براعة أبي تمام في قصيدة عمورية، سببها أن الشاعر بناها وصاغها على أساس تجربة كان قد خاضها في وصف حرب بابك، فتجنب الهفوات واستكثر من الروائع الرائعات .

إن ديوان أبي تمام لا يؤرخ لقصائده ولذلك أرجح أن اللامية الصغيرة في حرب بابك قد نظمت قبل الأخرى، لأن اللامية الكبرى فيها تفاصيل وشرح تدل على جهد ومتابعة ودراسة، وربما الاطلاع على أسرار لم تعرف إلا بعد مدة من انتهاء الحرب .

١ ـ لقد جعل أبو تمام من قصيدته تاريخاً للحرب، وحكاية لأحداثها، وقسم القصيدة على فصول أو مقاطع، اختص كل مقطع برواية أو فصل أو جانب من تلك الحرب الطويلة، فهو يصف الأثر الذي تركته الحرب على الناس بالمقطع الذي أوله : [من الكامل]

خاف العزيز به الذليل وغودرت نبعات نجد سجدا للضّال

ويؤكد الشاعر على أشهر المعارك التي خاضتها قوات الخليفة ضد جنود بابك وهما معركة أرشق أو يوم أرشق[٢٥] :

يا يوم أرشق كنت رشق منية للخرمية صائب الآجال

والمعركة الثانية المهمة هي معركة التل[٢٦] :

---

(٢٥) تاريخ الطبري: ١١/١١٧٤.

(٢٦) نفسه: أحداث سنة ٢٢٢ هـ.

wadod.org

وعشية التل الذي نعش الهدى أصل لها فخم من الآصال
نزلت ملائكة السماء عليهم لما تداعى المسلمون: نزال

ولعل الشاعر أراد بنزول الملائكة أنّ النصر كان صعباً جداً، وقد نص الشاعر على هذه الصعوبة بقوله:

وبهضبتي ابر شتويم ودروذ لقحت لقاح النصر بعد حيال

أما السبايا من النساء فقد ذكرهن الشاعر بالمقطع الذي أوله:

ابنا بكل خريدة قد أنجزت فيها عدات الدهر بعد مطال

وقد كرر الشاعر هذه الصورة في قصيدة عمورية وهي الأبيات التي أولها: [من البسيط]

كم نيل تحت سناها من سنى قمر وتحت عارضها من عارض شنب (٢٧)

ولكن أبا تمام وصف في هذه اللامية الخوف الذي أصاب الأسيرات فقال:

غاضت محاسنها مخاوف غادرت ماء الصبا والحسن من غير زلال
أعجلن عن شد الإزار وربما عودن أن يمشين غير عجال

ولم تتكرر هذه الصورة في البائية.

وقد تعمد الشاعر أن يصرّع في وسط قصيدته، ليزيد من موسيقاها من جهة، وليشير إلى أهمية احتلال البذ عاصمة بابك من جهة أخرى، وهو احتلال رافقه خراب وتدمير:

فالبذ اغبر دارس الاطلال ليد الردى أكل من الآكال
محو من البيض الرقاق أصابه فعفاه لا محو من الأحوال
لفحت سموم المشرفية وسطه وهجاً وكن سوابغ الاظلال

٢ـ بعد هذا التقسيم راح الشاعر يحشد لكل قسم ما يناسبه من تفريعات وصور وألفاظ، تخدم بمجموعها هدف القصيدة، فمثلاً عن أثر طول الحرب على المجتمع العباسي قال أبو تمام:

---

(٢٧) شرح التبريزي: ١/٧١.

wadod.org

قد أترعت منه الجوانح رهبة ... بطلت لديها سورة الأبطال
بحر من المكروه عب عبابه ... ولقد يرى وشلا من الأوشال
جفت به النعم النواعم وانثنت ... سرج الهدى فيه بغير ذبال
وأباح نصل السيف كل مرشح ... لم يحمرر دمه من الأطفال
ما حل في الدنيا فواق بكية ... حتى دعاه السيف بالترحال

لقد تعمد الشاعر الجمع بين براءة الطفولة وفظاعة السيوف ليصور خسّة هؤلاء. ولاحظ أن أبا تمام وهو في غمرة انفعال الحرب وأهوالها لم ينس بداوته وعروبته[٢٨]، فعمد إلى فواق الناقة التي لا لبن فيها ـ وهي البكية ـ ليصور بذلك سرعة مغادرة الأطفال لهذا العالم بسبب الحرب، وقد أخذ هذه الفكرة ابن الرومي فقال يرثي ابنه[٢٩]: [من الطويل]

لقد قل بين المهد واللحد لبثه ... فلم ينس عهد المهد إذ ضم في اللحد

٣ـ إن لامية أبي تمام هذه صيغت صياغة حربية، حتى تعمد الشاعر أن يوحي للسامع أو القارئ أن المدح ليس غرض القصيدة الأصلي، لأن الثناء على الخليفة المعتصم فيها لا يكاد يذكر، باستثناء أربعة أو خمسة أبيات عرف الشاعر كيف يدسها في وصفه للحرب[٣٠]. وقد حرص الشاعر أن يوفر لقصيدته من الموسيقى اللفظية ما يشبه صياح الفرسان وصهيل الخيل ودقات الطبول، حتى كادت تصبح قطعة موسيقية عن الحرب.

إن اللام المكسورة التي اختارها الشاعر للقافية حملته أولاً على الإكثار من صوت اللام لكي يلائم القافية؛ تأمل هذا البيت:

فنجا ولو يثقفنه لتركنه ... بالقاع غير موصل الأوصال

وهذا البيت:

لولا الظلام وقلة علقوا بها ... باتت رقابهم بغير قلال

---

(٢٨) انظر أيضاً البيتين: ٥١، ٧٥.
(٢٩) ديوان ابن الرومي: ٦٢٥/٢.
(٣٠) المرشد إلى فهم أشعار العرب: ٥٤٧/٢.

wadod.org

وقوله :

فكأنمـا احتـالت عليـه نفسـه إذ لـم تنلـه حيلـة المحتـال

وانظر أيضاً البيتين ٥٣ ، ٥٤ .

وأحياناً نجد الشاعر يكرر بعض الألفاظ داخل البيت الواحد من أجل صوت اللام كقول أبي تمام :

وعشية التـل الـذي نعـش الـهدى أصـل لـها فخـم مـن الآصـال
نزلـت ملائكـة السـماء عليـهم لمـا تداعـى المسـلمون نـزال
لـم يكس شـخص فيئه حتى رمـى وقـت الـزوال نعيمـهم بـزوال

إن تكرار اللام واضح في هـذه الكلمـات : أصـل من الآصـال ، نزلـت نـزال ، وقت الزوال بزوال .

ويلاحظ أن أبا تمام من أجل موسيقى الألفاظ يحرص علـى حشد حروف أو أصوات أخرى إلى جانب اللام في كلمـات متقاربـة في البيت الواحد ، تـأمل مثلاً هذا البيت :

وعشية التـل الـذي نعـش الـهدى أصـل لـها فخـم مـن الآصـال

إن كلمة نعش جاء بها الشاعر من أجل عشية لوجود الشين . وتأمل الكلمـات ذوات الميم في هذا البيت :

نزلـت ملائكـة السـماء عليـهم لمـا تداعـى المسـلمون نـزال

والكلمات ذوات الراء :

ريحـان مـن صـبر ونصـر أبليـا ربعيـه لا ريحـا صبـا وشـمال

وتأمل حرف الواو في هذا البيت :

لفحـت سـموم المشـرفية وسـطه وهجـاً وكـن سـوابغ الأظـلال

إن صوت الواو شـمل جميع كلمـات البيت إلا ثـلاث ، ولعـل الشـاعر تعمـد الإكثار من صوت الواو ليقرب إلـى السـامع صوت اشتعال النـار وتصاعدهـا مـن عاصمة بابك المحترقة ، جاء في تاريخ الطبري : إن الأفشين أحضر النفاطين فجعلـوا

wadod.org

يصبون عليهم النفط والنار والناس يهدمون القصور . .[٣١] وقد بدأ أبو تمام صدر هذا البيت بالفعل المحترق لفح ، وفي عجز البيت ابتدأ بوهج ، وهذه الصورة طورها أبو تمام في قصيدة عمورية فقال : [من البسيط]

غادرت فيهم بهيم الليل وهو ضحى ... يشله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها أو كأن الشمس لم تغب[٣٢]

ولكن تشبيه السيوف بالرياح المحرقة (السموم) لم يتكرر في البائية .

٤ـ لقد أراد أبو تمام لقصيدته أن ترتفع فيها أصوات الحروف والكلمات وتصخب ، ولذلك أكثر فيها من التكرار اللفظي ، كما حرص على الجناس وهو تكرار لفظي كما لا يخفى ، فمن تكرار اللفظ قوله :

لا كعب أسفل موضعاً من كعبه ... مع أنه عن كل كعب عال

لقد كرر الكعب ثلاث مرات ، وكذلك فعل في المتن في بيته :

أهدى لمتن الجذع متنيه كذا ... من عاف متن الأسمر العسّال

ويبدو أن اللغة لم تطاوع أبا تمام للإكثار الثلاثي ، ولذلك مال إلى التكرار الثنائي ، فأفرط حتى كاد هذا التكرار يصبح بين بيت وآخر فقد أحصيت منه أكثر من ٩٣ تكراراً منها تكرار النحر في قوله :

النحر أصلح للشرود وما شفى ... منه كنحر بعد طول كلال

وتكرار الأيام في قوله :

ألبسته أيامك الغر التي ... أيام غيرك عندهن ليالي

وتكرر الأكفال :

مستردفات فوق جرد أو قرت ... أكفالها من رجح الأكفال

وتأمل الكسور في هذا البيت :

بدلن طول أذالة بصيانة ... وكسور خيم من كسور حجال

---

(٣١) الطبري: ١٢١٨/١١ .
(٣٢) شرح التبريزي: ٥٣/١ .

wadod.org

والصبر في قوله :

مـهر البيـات الصـبر فـي متعطـف　　الصـبر وال فيـه فـوق الوالـي

وقوله :

فليشـكروا جنـح الظـلام ودروذاً　　فـهم لـدروذ والظـلام موالـي

وانظر أيضاً الأبيات : ١٧ ، ٦٧ ، ٦٨ .

ويلاحظ أن التكرار في جميع الشواهد التي أوردتها هو تكرار ألفاظ بعينها ، أي أن اللفظة ذاتها يكررها الشاعر مرتين في البيت الواحد ، ولكن الشاعر في أحيان أخرى لديه طرق أخرى للتكرار مثل المفعول المطلق في قوله :

ما نيل حتى طار من خوف الردى　　كـل المطـار وجـال كـل مجـال

قاسـى حيـاة الكلـب إلا أنـه　　قـد مـات صـبراً ميتـة الرئبـال

فرمـاه بالإفشـين بـالنجم الـذي　　صدع الدجى صدع الـرداء البـالي

وقوله :

غضـب الخليفـة للخلافـة غضبـة　　رخصت لـها المهجات وهـي غوالي

أما الجناس بنوعية التام والناقص فلا بد أن يستعين به أبو تمام في شعر الحرب ليزيد من موسيقى الألفاظ ، وليحاول الوصـول إلى صخب المعركة الحقيقي في حومة الوغى ، ولابد من ملاحظة أن الجناس التام الجيد صعب المنال ، ولذلك استكثر الشاعر من الجناس الناقص ، فمن التام قول أبي تمام :

وكذلـك مـا تنجـر أذيـال الوغـى　　إلا غـداة تشـمر الأذيـال

جانس بين أذيال الوغى وأذيال المقاتلين فيها ، وقوله :

ووردن موقانـاً عليـه شـوازباً　　شـعثاً بشـعث كالقطـا الأرسـال

فالشعث الأولى الخيل والثانية الفرسان ، وقوله :

لـم يكس شـخص فيئه حتى رمـى　　وقـت الـزوال نعيمـهم بـزوال

الجناس التام في عجز البيت ، وقوله :

wadod.org

محو من البيض الرقاق أصابه فمحاه لا محو من الأحوال

وهذا الجناس والاستعارة أو الصورة لسيوف المعتصم، وقد أزالت مدينة بابك من الخارطة، لا توجد إلا في شعر أبي تمام، وهي من مخترعات هذا العبقري التي أشار إلى بعضها صاحب المثل السائر[٣٣].

أما الجناس الناقص فكثير منه:

خلى الأحبة سالماً لا ناسياً عذر النسي خلاف عذر السالي

الجناس بين «سالماً وسالياً». وقوله:

كرامة وسط المنية وحدها لوامة الأعمام والأخوال

الجناس بين كرامة ولوامة. وقوله:

برزت بهم هفوات علجهم وقد يردي الجمال تعسف الجمّال

الجناس في عجز البيت، وقوله:

وسروا بقارعة البيات فزحزحوا بقراع لا صلف ولا مختال

وانظر الأبيات: ٣٨، ٢٩، ٢٣، ٧٧، ٨٥، ٨٨.

٥ـ ولا يعقل أن يهتم أبو تمام بالجانب اللفظي ويهمل المعاني والأفكار، بل العكس هو الذي لاحظه النقاد، ولذلك استكثر من الطباق أو نوافر الأضداد كما يسميه الدكتور شوقي ضيف[٣٤]، وقد استعان الشاعر بهذا الفن ليصور التناقض والتضاد الذي سببته حروب بابك، فمثلاً في أول القصيدة أراد الشاعر أن يعبر عن الخسائر في الأرواح التي أزهقها بابك فقال:

غضب الخليفة للخلافة غضبةً رخصت لها المهجات وهي غوالي

ففي عجز البيت طابق الشاعر بين غلاء الأرواح وكذلك رخصها من أجل غاية كبرى هي القضاء على بابك. وقال أبو تمام:

خاف العزيز به الذليل وغودرت نبعات نجد سجدا للضال

---

(٣٣) المثل السائر: ٢/٢٢. ط. ٩٦٢.

(٣٤) الفن ومذاهبه في الشعر: ٢٥٠.

wadod.org

الطباق أو المطابقة بين العزيز والذليل وكذلك بين النبع والضال.

وعن جنود المعتصم قال أبو تمام:

أسرى بنو الإسلام فيه وأدلجوا بقلوب أسد في صدور رجال

إن الطباق بين الأسد والرجال جاء غاية في الدقة وعدم التكلف، لأن الشاعر الفنان عرف كيف يمهد له بهذا التكرار المعنوي بين أسرى وأدلج ثم عمد إلى تغليفه بهذا الازدواج أو الموازنة بين قلوب وصدور لأنهما من وزن صرفي واحد[٣٥]، زد على ذلك تكرا السين ثلاث مرات في أسرى والإسلام والأسد، ولعل الشاعر وفق بذلك أن يوحي بالطريقة التي سلكها الجيش للإيقاع ببابك وإخراجه من معقله الحصين (موقان).

وانصاع عن موقان وهي لجنده ولـه أب بـر وأم عيال

وهنا أيضاً طابق أبو تمام بين أب وأم.

ويبدو لي أن طول القصيدة قد ساهم في تكدس الطباق في نهايتها حتى بدا غريباً متكلفاً كما في البيت ٨٢ الإمراع والإمحال، وفي البيت ٨٣ البدر والهلال، وفي البيت ٨٤ النقص والكمال، وفي البيت ٨٥ الأيام والليالي، وفي البيت ٨٦ الإدبار والإقبال.

٦ـ وفي ختام هذه الدراسة يحسن الوقوف عند ختام لامية أبي تمام وهي قوله:

وعزائماً في الروع معتصمية ميمونة الإدبار والإقبال

فتعمق الوزراء يطفو فوقها طفو القذى وتعقب العذّال

والسيف ما لم يلف فيه صيقل من طبعه لم ينتفع بصقال

إن الشاعر يكشف سراً لم يذكره المؤرخون[٣٦]؛ وهو أن القضاء على بابك كان بتصميم الخليفة وإصراره، فقد أجمع المقربون والمستشارون في البلاط

(٣٥) المثل السائر: ٣٧٩/١، ط.٩٥٩.

(٣٦) لم أجدها في الطبري ولا في ابن الأثير.

wadod.org

العباسي على أن القضاء على حركة بابك غير ممكن، ولكن الخليفة المغامر المحارب هو الذي أصر فكان الفتح العظيم[٣٧].

٢ـ الحرب في مدائح القادة (الحروب الخارجية):

ويحتل هؤلاء أكثر شعر الحرب الذي نظمه أبو تمام، ولعل هذا الشعر هو في الوقت نفسه يمثل قسماً كبيراً من ديوان الشاعر، لأن الحرب وما يتصل بها شغلت مساحة واسعة من تفكير الشاعر ونشاطه الثقافي بصورة عامة، حتى إن أهم مؤلفات الشاعر وأكبرها وهو ديوان الحماسة شغلت الحرب وما يتصل بها أكثر من ثلثه وكذلك الأمر في كتابه الآخر وهو الوحشيات[٣٨].

ويلاحظ أن أكثرية القادة الذين مدحهم أبو تمام ووصف الحروب التي خاضوها كانوا من العرب، وأشهرهم أبو سعيد الثغرى الطائي وأبو دلف العجلي وخالد بن يزيد الشيباني، أما غير العرب فأشهرهم الإفشين وإسحاق بن إبراهيم.

إن قصائد الحرب في ديوان أبي تمام هي في الأصل من قصائد المدح، ولذلك لا بد أن تكون الأفكار والصور التي يرسمها الشاعر للقادة مما يعجبهم ويرضيهم ويحملهم بعد ذلك على منح الشاعر أكبر الجوائز، وإذا تتبعنا أهم وأشهر المعاني التي خلفها الشاعر على ممدوحيه من خلال وصف الحرب فسوف نجد فكرتين بارزتين تتصدران هذه المدائح وهما:

١ـ الدفاع عن الإسلام الذي يمثله الخليفة العباسي، وهذه الناحية الدينية تشمل جميع مدائح القادة باستثناء خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني[٣٩] وأبي دلف العجلي، لأن فكرة العروبة وما يتصل بها من شرف الأصل وكرم العشيرة هي الواضحة الطاغية في مدائح هذين القائدين[٤٠].

٢ـ العروبة وهي واضحة في ديوان أبي تمام تشمل المدح والرثاء[٤١] وكذلك الهجاء[٤٢]، وهذه الأغراض الثلاثة هي أكثرية ديوان الشاعر.

---

(٣٧) شرح التبريزي: ١٤٥/٣.

(٣٨) ينظر شرح المرزوقي لحماسة أبي تمام وكذلك الوحشيات له طبع دار المعارف ١٩٧٠.

(٣٩) لا بد من استثناء الهمزية في أول شرح التبريزي من هذا الحكم العام.

(٤٠) ينظر شرح التبريزي ١٧٧/١، ٤٠٥، ٤٢٣، ١٩٨/١، ٣٥٩/٢.

(٤١) نفسه ٥/٤، ٦٥، ١٠٧، ١٣٩.

(٤٢) نفسه ٣٠٨/٤.

wadod.org

وسأحاول في الصفحات الآتية دراسة أثر هذين الجانبين في شعر أبي تمام من خلال وصف الحرب.

١- الدين:

إن الدولة العباسية ومنها الجيش العباسي قامت على أساس الدين والخليفة العباسي يمثل الشريعة الإسلامية، ولذلك فإن الخارجين عليه خارجون على الإسلام ويجب محاربتهم، والقادة العباسيون إنما يقاتلون من أجل الإسلام ونشره، ولذلك نجد أبا تمام ـ وهو يمدح هؤلاء القادة ـ يحاول أن يربط ويصل بين معارك صدر الإسلام والمعارك العباسية ضد بابك وكذلك ضد الروم البيزنطيين، قال في مدح أبي سعيد الثغرى: [من البسيط]

يوم به أخذ الإسلام زينته ... بأسرها واكتسى فخراً به الأبد

يوم يجيء إذا قام الحساب ولم ... يذم بدر ولم يفضح به أحد[٤٣]

وفي هذه الدالية قال مخاطباً بابكاً واسمه معاوية:

نجاك في الروع ما نجى سميك في ... صفين والخيل بالفرسان تنجرد

وقد يفهم من هذا البيت مذهب أبي سعيد، ولذلك تعمد الشاعر أن يذكره بما حدث لمعاوية في يوم صفين.

وقال يمدح إسحاق بن إبراهيم: [من الوافر]

ولكن أذكرتنا يوم بدر ... ومشتجر الأسنة في حنين[٤٤]

ويبدو لي أن القادة العباسيين التزاماً من الدولة بتعاليم الإسلام كانوا يحذرون الأعداء من مغبة الخروج على طاعة الخليفة، فإذا أصروا وعاندوا قاتلوهم، قال أبو تمام يمدح إسحق بن إبراهيم: [من الكامل]

---

(٤٣) ينظر شرح التبريزي: ٢/٢٠.

(٤٤) نفسه ٣/٣٠٧.

wadod.org

ناشـدتهم بـالله يـوم لقيتـهم والخيـل تحـت عجاجـة كـالنيم
ومنحتـهم عظتيـك مـن متوعـر متسـهل قاسـي الفـؤاد رحيـم
حـق إذا جمحـوا هتكـت بيوتـهم بـالله ثـم الثـامن المعصـوم
فتجـردت بيـض السـيوف لهامـهم وتجـرد التوحيـد للتخريـم[٤٥]

ولكن إشارة ابن تمام هذه بقيت وحيدة في ديوانه، فهل كانت تصرفاً (شخصياً) من القائد إسحاق بن إبراهيم لأن الثائرين من الفرس أبناء جلدته؟

إنّ دراسة مدائح أبي تمام الحربية يفهم منها أن الشاعر ينظر إلى الدين بحذر وتقديس، فهو يعرف أن الإكثار من الأبيات ذات الأفكار الدينية قد لا يرضي الممدوحين، كما أن الابتعاد عن الدقة والتساهل في التعامل مع الألفاظ والأفكار الدينية قد يثير المحافظين عليه، لا سيما ونحن نعرف عمق وضخامة أثر شعره بين معاصريه[٤٦] ولذلك بقي الدين واضحاً (بينا) في نسيج القصائد وهيكلها العام ولكنه لا يغطي أو يحجب عناصر القصيدة أو ألوانها الأخرى، فمثلاً قصيدته التي مطلعها: [من الكامل]

لا أنـت أنـت ولا الديـار ديـار خف الـهوى وتولـت الأوطـار[٤٧]

نجد أن عدد أبيات القصيدة هو ٦٤ بيتا، وكان نصيب الدين منها ٦ أبيات فقط، مع ملاحظة حرص الشاعر على الاستفادة من الدين في المكان المناسب، لكي يدعم ويوضح ويرصن الأفكار والمعاني والصور التي راح ينثرها منذ مطلع القصيدة وهو الغزل، ثم ينتقل إلى المدح في البيت الثامن، وقد تعمّد الشاعر التصريح في هذا البيت ليشير إلى نهاية الغزل فيقول:

قد صرحت عن محضها الأخيار واستبشرت بفتوحك الأمصار

وبعد ذلك يأتي المدح ودور الممدوح في قتال الروم حتى إن القائد الرومي منويل لم يستطع سوى البكاء (بسوابق العبرات وهي غزار)، بعد ذلك يخاطب الشاعر القائد الرومي قائلاً:

---

(٤٥) شرح التبريزي ٣/٢٦٥.
(٤٦) انظر مثلاً أخبار أبي تمام للصولي.
(٤٧) شرح التبريزي ٢/١٦٦.

wadod.org

هيهات جاذ بك الأعنة باسل يعطي الأسنة كل ما تختار

وهو البيت رقم ٣٢، وبعد ذلك البيت مباشرة وفي منتصف القصيدة يستعين الشاعر بالدين فيقول:

فمضى لو انّ النار دونك خاضها بالسيف إلا أن تكون النار

حتى يؤوب الحق وهو المشتفي منكم وما للدين فيكم ثار

وهكذا يعجب الشاعر أهل الفن والممدوح ورجال الدين، ولكن أبا العلاء المعري يقول: (رفع النار جائز بلا اختلاف، والنّصب في هذا الموضع أحسن، لانه يقتضي الضمير...)[٤٨].

ثم يستمر الشاعر في المدح ليعود ثانية إلى الدين في البيت ٤٤ قائلاً عن أبي سعيد:

متبهم في غرسه أنصاره عند النزال كأنهم أنصار

وفي البيت ٤٨:

والبيض تعلم أن دينا لم يضع مذ سلهن ولا أضيع ذمار

وبعده في البيت ٥٣ قال عن أبي سعيد:

هو كوكب الإسلام أية ظلمة يخرق فمخ الكفر فيها دار

هذا هو أسلوب أبي تمام في التعامل مع المفردات الدينية في هذا النوع من المدح مع بعض الاختلاف اليسير بين قائد وآخر وقصيدة وأخرى، لأسباب يصعب الجزم بها، لأن ديوان الشاعر لا يساعد في هذه المجال إلا في حدود ضيقة جداً، فمثلاً يلاحظ من ديوان أبي تمام أن مدائحه الحربية لأبي سعيد الثغري فيها إشارات وأبيات يبرز فيها الجانب الديني واضحاً، ولكن مدائح أبي تمام لخالد بن يزيد الشيباني ـ وهو عربي مثل أبي سعيد ـ ليس فيها بروز واضح للجانب الديني، فهل يدل هذا على شخصية الممدوح:

---

(٤٨) شرح التبريزي ٢/١٧٣.

wadod.org

وفي ختام هذا الموضوع لا بد من ملاحظتين: الأولى أن أبا تمام في بعض الأحيان يأخذ ألفاظاً دينية مفردة، ويطعم بها شعره لأغراض فنية، مثل الوصيد في قوله: [من الوافر]

رأوا ليث الغريفة وهو ملق ذراعيه جميعاً بالوصيد(٤٩)

والركوع والسجود في قوله يصف الخيل:

حذوناها الوجى والأين حتى تجاوزت الركوع إلى السجود(٥٠)

وقوله: [من الوافر]

ولو لا سيفك الماضي لسموا خليلي ملة ومحمدين(٥١)

وفي هذه الحالة يحرص الشاعر أن يكون استعماله للمفردة الدينية مطابقاً تماماً لمعناها واستعمالها الأصلي، وهذا هو الأسلوب الأكثر شيوعاً في ديوان أبي تمام ولكن الشاعر في أحيان أخرى قليلة قد يلخص فكرة دينية ثم يوردها بألفاظ لا تخرجها عن معناها الأصلي كقوله: [من الوافر]

كأن جهنم انضمت عليهم كلاها غير تبديل الجلود(٥٢)

وقوله: [من الطويل]

فلو صح قول الجعفرية في الذي تنص من الإلهام خلناك ملهما(٥٣)

وقوله: [من الطويل]

كيوسف لما أن رأى أمر ربه وقد هم أنْ يعروري الذنب أحجما(٥٤)

وقوله: [من البسيط]

ولت شياطينهم عن حد ملحمة كانت نجوم القنا فيها لهم رجما(٥٥)

---

(٤٩) شرح التبريزي ٢/٣٩.
(٥٠) نفسه ٢/٣٥.
(٥١) نفسه ٣/٢٩٩ وانظر أيضاً ٣/٢٢٦، ٢٣٧، ٢٤٢، ٢/٣٧، ١/١٦٣، ٣٣٢.
(٥٢) نفسه ٢/٣٩.
(٥٣) نفسه ٣/٢٤٢.
(٥٤) شرح التبريزي ٣/٢٤٠.
(٥٥) نفسه ٣/١٧٢، وانظر أيضاً ٢/٤٣٣، ١/١٨٩، ١/٣٣٣، ٢/٢١.

wadod.org

والملاحظة الثانية هي أن شاعرنا قد يستفيد من الدين لإقامة ما عرف عنه من غرام وحرص على الطباق والجناس بأنواعهما المختلفة كقوله: [من الطويل]

رأى بابك منك التي طلعت له ... بنحس وللدين الحنيف بأسعد(٥٦)

وقوله: [من البسيط]

كانت على الدين كالساعات من قصر ... وعدها بابك من طولها حججا(٥٧)

وقوله: [من الكامل]

نقلوا من الماء النمير وعيشة ... رغد إلى الغسلين والزقوم(٥٨)

وقوله: [من الخفيف]

حين عفى مقام إبليس سامى ... بالمطايا مقام إبراهيما(٥٩)

حطم الشرك حطمة ذكرته ... في دجى الليل زمزما والحطيما

٢- العروبة:

أبو تمام شاعر طائي، والحرب وما يتصل بها جزء من حياة العرب الطبيعية، ولذلك بات عاراً عندهم أن يموت المرء على فراشه كميتة البعير(٦٠)، ومن هنا يصعب فصل عروبة الشاعر عن وصفه للمعارك وخوضه في ميادين الوغى وساحات الكر والفر، فأنت تشعر منذ بداية القصيدة الحربية أن الرجل مستعجل، ولذلك يختصر المقدمة اختصاراً ليصل إلى المعركة ودور الممدوح في أهوالها(٦١) ففي الجيمية التي مدح بها أبا سعيد الثغري كانت المقدمة بيتاً واحداً هو قوله: [من البسيط]

أبى فلا شنباً يهوى ولا فلجا ... ولا احوراراً يراعيه ولا دعجا(٦٢)

---

(٥٦) شرح التبريزي ٢/ ٣٠.
(٥٧) نفسه ١/ ٣٣٢.
(٥٨) نفسه ٣م٢٦٦.
(٥٩) نفسه ٣/ ٢٢٧.
(٦٠) شعر الحرب في أدب العرب ٤١.
(٦١) مرت الإشارة إلى إسقاط أبي تمام للمقدمة وهي من أشهر ملاحمه الحربية.
(٦٢) شرح التبريزي ١/ ٣٢٩.

wadod.org

أما إذا زادت المقدمة على خمسة أو ستة أبيات فإن عروبة الشاعر وتراثه البدوي سيتصدران قصيدته، وعندئذ ستعجب من هذا التقديس وتلك الجلالة التي ينظر بها زعيم مجددي القرن الثالث إلى الصحراء وأطلالها وخيامها، حتى إنه أقسم بها في إحدى مدائحه فقال: [من الكامل]

لا والطلول الدارسات أليـة ... من معرق في العاشقين صميم (٦٣)

وضرب المثل بحلاوة وصف الديار فقال: [من الخفيف]

طاب فيه المديح والتذ حتى ... فاق وصف الديار والتشبيبا (٦٤)

وقال في قصيدة أخرى: [من الخفيف]

واستميحا الجفون درة دمع ... في دموع الفراق غير لصيق

إنَّ من عق والديه لمعـ ... ـون ومن عق منزلاً بالعقيق (٦٥)

وتأمل دموع أبي تمام في قوله (٦٦):

على مثلها من أربع وملاعب ... أذيلت مصونات الدموع السَّواكب

وقال مبالغاً في اختلاط الدموع بالدم (٦٧): [من البسيط]

حتى يظل بماء سافح ودم ... في الربع يحسب من عينيه قد رعفا

فإذا تجاوزنا مقدمات القصائد إلى وصف المعارك ذاتها فسوف نجد فرقاً بينا واضحاً بين القادة العرب، ومنهم أبو سعيد الثغري، وغير العرب ومنهم إسحاق ابن إبراهيم، لأن الشاعر يصف معارك القائد العربي، ويذكر تفاصيلها يخيل للقارئ أو السامع أن أبا تمام كان مشاركاً في المعركة، وأنه كان في صحبة القائد فاطلع على الأسرار، ووقف عن كثب يرصد ما يجري، ثم يرسمه بريشته على شكل قصائد وأبيات، أما غير العرب فتشعر أن أبا تمام هنا ليس سوى شاعر يمدح قائداً من أجل الجائزة، فمثلاً قصيدته في أبي سعيد التي مطلعها: [من الطويل]

---

(٦٣) شرح التبريزي ٢/٢٦٢.
(٦٤) نفسه ١/١٦١.
(٦٥) نفسه ٢/٤٣١.
(٦٦) نفسه ١/١٩٨.
(٦٧) نفسه ٢/٣٥٩، وانظر أيضاً ٣/٢٢٢.

wadod.org

عسى وطن يدنو بهم ولعلما ... وإنْ تعتب الأيام فيهم فربما[٦٨]

يصف الشاعر قائدين لأبي سعيد وقعا ليلا في كمين للروم، وكادا يقتلان أو يقعان في الأسر لولا ثقتهما بنجدة أبي سعيد، ولذلك ظلا صامدين يقاتلان حتى لحقهما أبو سعيد، قال أبو تمام عن أحد هذين القائدين: [من الطويل]

مثلت له تحت الظلام بصورة ... على البعد أقنته الحياء فصمما
كيوسف لما أن رأى أمر ربه ... وقد هم أن يعروري الذنب أحجما
وقد قال: إما أن أغادر بعدها ... عظيماً وإما أن أغادر أعظما
ونعم الصريخ المستجاش محمد ... إذا حن نوءٌ للمنايا وأرز ما

ثم يصف ما فعله أبو سعيد لقائديه:

هزبرا غريف شد من أبهريهما ... ومتنيهما قرب المزعفر منهما
فأعطيت يوماً لو تمنيت مثله ... لأعجز ريعان المنى والتوهما
لحقتهما في ساعة لو تأخرت ... لقد زجر الإسلام طائراً أشأما
فلو صح قول الجعفرية في الذي[٦٩] ... تنص من الإلهام خلناك ملهما

وفي قصيدة أخرى يصف أبو تمام غزوة لأبي سعيد إلى بلاد الروم في وقت من الشتاء شديد البرد: [من الخفيف]

لقد انصعت والشتاء له وجـ ... ـه يراه الكماة جهماً قطوبا
طاعناً منحر الشمال متيحاً ... لبلاد العدو موتاً جنوبا[٧٠]

وربما تعمد أبو سعيد أن يغزو في هذا الوقت الصعب، لأن الروم لا يتوقعون فيه غزواً من الجنوب، ولذلك وصفه الشاعر بالبراعة وحسن التوقيت فقال:

---

(٦٨) شرح التبريزي ٢٣٢/٣.
(٦٩) شرح التبريزي ٢٤٢/٣.
(٧٠) نفسه ١٦٥/١.

wadod.org

فرأوا قشعم السياسة قد ثقـــــف من جنده القنا والقلوبا
حية الليل يشمس الحزم منه إنْ أرادت شمس النهار الغروبا

ولكن أبا سعيد لم يكتف بهذه الغزوة الناجحة، بل أمر أحد قواده وهو محمد ابن معاذ الأزدي أن يغزو بعده، ولا بد أن خبرة أبي سعيد ببلاد الروم قد جعلت غزوته أنجح من غزوة الأزدي، فقال أبو تمام:

ثم وجهت فارس الأزد والأو حد في النصح مشهداً ومغيبا
فتصلى محمد بن معاذ جمرة الحرب وامترى الشوبوبا

ولذلك يلوم الشاعر ممدوحه أبا سعيد على هذه الغزوة الثانية الفاشلة قائلاً للقائد: إنك لم تشاور فيها أحداً، وإنما اعتمدت على رأيك وحده:

غزوة متبع ولو كان رأي لم تفرد به لكانت سلوبا[٧١]

ولا شك أن عروبة الشاعر ومنزلته الكبيرة لدى هؤلاء القادة، هي التي جعلت أبا تمام يترفع عن منزلة الشاعر المداح، ويصبح كأنه أخ أو صديق حميم، حتى صار يطلع على أسرار المعارك التي خاضها أولئك القادة.

ومن الطريف أن أبا تمام وهو يصف المعارك في بلاد الروم أو تلك التي دارت في أذربيجان ضد بابك وأتباعه، أقول: إن أصل الشاعر العربي البدوي لا بد أن يجري على لسانه فيعبق بين أبياته أريج بلاد العرب، وما عرفت من آبار وخيام وإبل، لأن الشاعر إنما ينطق بلسان قومه ويأخذ ألفاظه وصوره من الوسط الذي نشأ وترعرع فيه، ولذلك لا نعجب حين نقرأ قول أبي تمام[٧٢]: [من البسيط]

كأن بابك بالبذين بعدهم نوى أقام خلال الحي أو وتد

وقوله يصف خيل أبي سعيد: [من الوافر]

بلاك فكنت أرشية الأماني وبرد مسافة المجد البعيد[٧٣]

---

(٧١) شرح التبريزي ١/١٧٠ وانظر أيضاً ٢/٢٤٢، ١/٢١٠.
(٧٢) شرح التبريزي ٢/١٨.
(٧٣) نفسه ٢/٣٦.

wadod.org

لأن الرشاء يذكر عادة عند الاستقاء من الآبار، وأبو تمام إنما يتحدث بلغة قومه وهم بدو، لذلك تكررت في شعره صورة البئر وما يتصل بها فقال[٧٤]: [من الطويل]

لعمري لقد غادرت حسي فؤاده ... قريب رشاء للقنا سهل مورد
وكان بعيد القعر من كل ماتح ... فغادرته يسقي ويشرب باليد

وقال: [من البسيط]

ظل القنا يستقي من صفه مهجاً ... إما ثمادا واما ثرة خسفا[٧٥]

وقال: [من الطويل]

إلى حائط الثغر الذي يورد القنا ... من الثغرة الريا القليب المهدما

والقليب هو البئر، ولكن أبا تمام ـ كما يشرح الخطيب التبريزي ـ أراد به الطعنة وحائط الثغر: حافظه[٧٦]:

ويأتي حيوان الصحراء بعد الآبار في استعارات أبي تمام الصحراوية هذه كقوله: [من الكامل]

ضرباً كأشداق المخاض وتحته ... طعن كأن وجاءه ماعون[٧٧]

وقال عن بابك وأصحابه: [من البسيط]

لا يوم أكثر منه منظراً حسناً ... والمشرفية في هاماتهم تخد

قال الخطيب شارحاً: أسعار الوخد من الإبل للسيوف[٧٨].

وقال: [من الخفيف]

وبوادي عقرقس لم تعرد ... عن رسيم إلى الوغى وعنيق[٧٩]

وقال عن الرماح: [من البسيط]

---

(٧٤) شرح التبريزي ٢/٢٨.
(٧٥) شرح التبريزي ٢/٣٦٩.
(٧٦) نفسه ٣/٢٣٤، وانظر أيضاً ٢/١٢.
(٧٧) نفسه ٣/٣١٩.
(٧٨) نفسه ٢/١٧.
(٧٩) نفسه ٢/٤٤٠.

wadod.org

كأنـها وهـي فـي الأوداج والغـة وفي الكلى تجد الشوق الذي نجد

قال الخطيب شارحاً[٨٠]: أصل الولغ للذئاب والذباب، ويقال هو أسرع من ولغ الذئب.

٣- الحروب الداخلية:

من ديوان أبي تمام يبدو بوضوح أن الحروب التي شارك فيها الشاعر بلسانه نوعان هما: الحروب الخارجية ضد الروم البيزنطيين وبابك الخرمي، والحروب الداخلية التي كانت تنشب في داخل أقاليم الدولة العباسية، وخاصة في مصر ومنطقة الجزيرة وبلاد الشام.

وقد كتب على أبي تمام أن يكون شاباً في مقتبل العمر حين عاش في مصر وشاهد الحروب المختلفة فيها أواخر خلافة المأمون، وقد أشرت إلى هذا الموضوع في مقدمة هذا البحث.

أما الحروب في الجزيرة وبلاد الشام فإن شعر أبي تمام فيها يدل على شاعر كبير قد تمرس بفنون الشعر، وادرك طبيعة الصراع الدائر بين الخلافة العباسية وخصومها من عرب الشام والجزيرة، ولذلك نجد أن قصائد أبي تمام في هذه الحروب الداخلية تختلف من ناحية العاطفة والحماس والمعاني والصور عن قصائده الغاضبة الثائرة التي مرت في الحروب الخارجية.

إنّ شعر أبي تمام في الحروب الداخلية والخارجية على السواء يدل على حس قومي عربي لا سبيل إلى نكرانه، حتى إن أكثر قادة الجيش الذين مدحهم كانوا من زعماء القبائل العربية، ومنهم الشيباني خالد بن يزيد، والطائي أبو سعيد محمد بن يوسف، والعجلي أبو دلف القاسم بن عيسى، والتغلبي ملك بن طوق[٨١]، وقد وقف الشاعر موقفاً عربياً إلى جانب هؤلاء القادة حين يعزلون من مناصبهم، أو حين يتعرضون لأذى من خصومهم، فقد نص الديوان على أن احدى القصائد انما

---

(٨٠) شرح التبريزي ١٧/٢ وانظر أيضاً ٣٣٧/١، ١٧٠،١.

(٨١) نفسه ٧٥/١، ٣١١، ١٨٤،٣، ١٩٥.

wadod.org

نظمها أبو تمام يمدح خالد بن يزيد، ويهجو رجلاً فاخره لما عزل عن الثغور[٨٢]، وهي القصيدة ذات المطلع الغاضب الثائر: [من البسيط]

أقرم بكر تباهي أيها الحفض ونجمها أيهذا الهالك الحرض

وفيها قال أبو تمام:

لا يهنئ العصبة المحمر أعينها بثغر أرأن هذا الحادث العرض

أضحى الشجا مستطيلاً في حلوقهم من بعد ما جاذبوه وهو معترض

وفي الديوان نص أخر يؤكد أن أبا تمام لم يرض أن يساء إلى سمعة القائد محمد بن حميد الطوسي الطائي على الرغم من اساءة شقيقه عثمان بن حميد اليه، فقال أبو تمام عن عثمان: [من الوافر]

لئيم الفعل من قوم كرام له من بينهم أبداً عواء[٨٣]

إن ديوان أن تمام فيه ست قصائد تشير إلى معارك داخلية، واحدة منها في دمشق بقيادة أبي المغيث الموسى بن إبراهيم، وهو شقيق اسحاق بن إبراهيم صاحب الشرطة ببغداد[٨٤]، والقصائد الخمس الباقيات تصف محاربة الجيش العباسي الثائرين من قبيلة تغلب التي تسكن منطقة الجزيرة، لأن الشاعر يذكر في هذه القصائد مدناً تقع في هذه المنطقة أو بالقرب منها مثل نصيبين[٨٥] وبرقعيد وباعيناث[٨٦] قال في إحدى القصائد يمدح مالك بن طوق: [من الكامل]

تلك الجزيرة مذ تحمل مالك أمست وباب الغيث عنها مبهم

وعلت قراها غبرة ولقد ترى في ظله وكأنما هي أنجم[٨٧]

---

(٨٢) شرح التبريزي ٢/٢٨٣.

(٨٣) نفسه ٤/٢٩٦، وانظر الهامش وانظر، وانظر أيضاً ٣/١٩٥.

(٨٤) نفسه ٢/٢٦٢.

(٨٥) نفسه ٢/١٩٧.

(٨٦) نفسه.

(٨٧) شرح التبريزي ٣/١٩٦.

wadod.org

وكان القائد الذي يمدحه الشاعر في أربع هذه القصائد هو مالك بن طوق زعيم تغلب، أما القصيدة الخامسة فهي في مدح أبي سعيد الثغري[٨٨]، وهي أيضاً تصف حرباً ضد قبيلة تغلب ذاتها.

ولا بد من ذكر ملاحظة هامة عن الحروب الداخلية هذه، لأن أبا تمام شاعر وليس مؤرخاً، وهو يتعمد ـ كما أظن ـ أن يمر بالنواحي الحساسة من الموقعة مروراً سريعاً مؤكداً على دور القائد في إصلاح ذات البين وإعادة الأمن والأمان إلى المنطقة، حتى يحسب القارئ أن الموقعة لم تكن سوى خلاف بسيط بين أقارب، مع أن المؤرخين يشيرون إلى أن بعض الحروب الداخلية قتل فيها نحو من عشرين الفاً وبلغ عدد الثائرين مائة ألف[٨٩].

ومن أمثلة تهوين الأمور والتقليل من شأن الحروب الداخلية سينية أبي تمام في ثورة دمشق التي أخمدها موسى بن إبراهيم، قال بعد المقدمة الغزلية: [من الكامل]

إيهاً دمشق فقد حويت مكارما ... بأبي المغيث وسؤددا قد موسا
الآن أمست للنفاق وأصبحت ... عوراً عيون كن قبلك شوسا
وتركت تلك الأرض ظلاً سجسجاً ... من بعد ما كادت تكون وطيسا
لم يشعروا حتى طلعت عليهم ... بدراً يشق الظلمة الحندسا
سار ابن إبراهيم موسى سيرة ... سكن الزمان لها وكان شموسا
فأقر واسطة الشآم وأنشرت ... كفاه جوراً[٩٠] لم يزل مرموسا
فكأنهم بالعجل ضلوا حقبة ... وكأن موسى إذ أتاهم موسى
وستشكر النعمى التي صنعت ولا ... نعم كنعمى أنقذت من بوسى[٩١]

إن القصيدة و شرح التبريزي لها يدلان على ثورة كبيرة احتل الثائرون فيها مدينة دمشق، وزحفوا على حمص واحتلوها أيضاً، ولم يستطع الوالي أن يقضي عليها، فأرسل الخليفة القائد موسى بن إبراهيم فاستطاع أن يخمد الثورة، هذا ما

---

(٨٨) شرح التبريزي ٢/٤٥٦.
(٨٩) ينظر تاريخ الطبري وابن الأثير حوادث سنة ٢٢٧ هـ ثورة المبرقع في فلسطين.
(٩٠) كذا في الأصل، والصواب: جوداً.
(٩١) شرح التبريزي ٢/٢٦٤ – ٦٩.

wadod.org

تدل عليه قصيدة أبي تمام، ولكن الشاعر صور ما حدث بطريقة تختلف عن الطريقة التي كان يرسمها للحرب ضد الروم، والتي كانت تجري فيها الدماء أنهاراً، وكانت الحرائق تهون عندها جهنم وكان الجيش عرمرماً للأرض منه خوار[٩٢].

إنّ أبا تمام في هذه السينية شاعر آخر، ألفاظه ومعانية وصوره جديدة، وحتى القافية لا تصلح لوصف المعارك، فلم يسبق أبداً أن جاء حرف السين قافية لأية قصيدة في حرب بابك ولا في حروب الروم، وتأمل بيت أبي تمام:

وتركت تلك الأرض ظلاً سجسجاً ... من بعد ما كادت تكون وطيساً

إن الظل السجسج بعيد كل البعد عن أرض تسل فيها السيوف وتقطع بها الأعناق، والفعل كادفي عجز البيت لم يقع في موقعه اللغوي الصحيح، وتأمل كيف ينصح أبو تمام القائد العباسي:

أسق الرعية من بشاشتك التي ... لو أنها ماء لكان مسوسا
إنّ الطلاقة والندى خير لهم ... من عفة جمست عليك جموساً
لو أن أسباب العفاف بلا تقى ... نفعت لقد نفعت إذا إبليسا

أما الحرب في الجزيرة ضد قبيلة تغلب فإن أبا تمام ـ كما فعل في القصيدة السابقة ـ لا يريد أن ينقل ما حدث فعلاً، بل يصور الأمر على أنه صراع بين القبيلة وزعيمها مالك بن طوق، ثم بعد ذلك بين تغلب والقائد الطائي أبي سعيد محمد ابن يوسف، وهو يزعم أن والدة تغلب تسمى دلفاء وهي طائية، ولذلك فكل طائي هو ابن خال تغلب، قال أبو تمام يخاطب تغلب[٩٣]: [من البسيط]

أبناء دلفاء مهلاً إن أمكم ... دافت لكم علقم الأخلاق والشيم
طائية لا أبوها كان مهتضماً ... ولا مضى بعلها لحما على وضم
لا توقظوا الشر من قوم فقد غنيت ... دياركم وهي تدعى موطن النعم
هذا ابن خالكم يهدي نصيحته ... من يتهم فهو فيكم غير متهم

(٩٢) شرح التبريزي ٢/ ١٧٠ البيت ١٩.
(٩٣) شرح التبريزي ٣/ ١٩٤.

wadod.org

ويبدو من شعر أبي تمام أن قبيلة تغلب صعبة المراس لا تخضع لأحد بسهولة ولذلك اضطر مالك بن طوق إلى القسوة والعنف، فظل أبو تمام يعيد ويكرر زاعماً أن القائد محرج وان بعض اللوم يقع على القبيلة: [من الكامل]

هم مزقوا عنه سبائب حلمه ... وإذا أبو الأشبال أحرج عاثا[٩٤]

وقال[٩٥]: [من البسيط]

أخرجتموه بكره من سجيته ... والنار قد تنتقى من ناضر السلم

أو طأتموه على جمر العقوق ولو ... لم يحرج الليث لم يبرح من الأجم

وقال مرة ثالثة[٩٦]: [من الكامل]

فقسا لتزدجروا ومن يك حازماً ... فليقس أحياناً وحينا يرحم

وأخافكم كي تغمدوا أسيافكم ... إن الدم المغتر يحرسه الدم

وعلى الرغم من المعارك العديدة بين مالك وقبيلته فإن مكانة أبي تمام عنده قد شجعته على أن يشفع لحي من تغلب في إحدى المناسبات، فقبل مالك شفاعته وعفا عن الثوار، فقال أبو تمام: [من الكامل]

يا مالك بن المالكين ولم تزل ... تدعى ليومي: نائل وعقاب

لم ترم ذا رحم ببائقة ولا ... كلمت قومك من وراء حجاب

للجود باب في الأنام ولم تزل ... يمناك مفتاحاً لذاك الباب

ورأيت قومك والإساءة منهم ... جرحى بظفر للزمان ونابِ

هم صيروا تلك البروق صواعقاً ... فيهم وذاك العفو سوط عذاب

فأقل أساءة جرمها واصفح لها ... عنه وهب ما كان للوهاب[٩٧]

وفي ختام هذا البحث أظن أنّ أبا تمام كان يشعر بحرج شديد وهو يمدح القادة الذين كان لهم دور في القضاء على الفتن الداخلية، ويدل شعره على اصطراع

---

(٩٤) شرح التبريزي ٣١٧/١.

(٩٥) نفسه ١٨٩/١.

(٩٦) نفسه ٢٠٠/٣.

(٩٧) شرح التبريزي ٧٩/١ – ٨١.

wadod.org

عاملين في نفسه ووجدانه، أولهما: أنه شاعر مداح لا بد أن يجيد صنعته، وثانيهما أنه من المثقفين العرب الكبار[٩٨] ولذلك فهو لا يستطيع أن يخدع نفسه بالقول إنّ الحرب ضد تغلب تشبه الحرب ضد الروم، ولكي تتضح الصورة أكثر أنصح القارئ بالرجوع إلى قصيدتين: إحداهما لأبي تمام والأخرى للبحتري، وكلتاهما في مدح أبي سعيد الثغري حين قضى على إحدى ثورات تغلب، ومن قصيدة أبي تمام قوله[٩٩]: [من الطويل]

ألكني إلى حي الأراقم إنه ... من الطائر الأحشاء تهدي المسالك
كلوا الصبر غضا واشربوه فإنكم ... أثرتم بعير الظلم والظلم بارك
أتاكم سليل الغاب في صدر سيفه ... سنا لدجى الاظلام والظلم هاتك
ولو لم يكفكف خيله عركتكم ... بأثقالها عرك الأديم المعارك
ولا جتذبت فرش من الأمن تحتكم ... هي المثل في لين بها والأرائك
ولكن أبى أن يستباح بكفه ... سنامكم في قومكم وهو تامك

أما قصيدة البحتري فمنها قوله[١٠٠]: [من الكامل]

كنا نكفر من أمية عصبة ... طلبوا الخلافة فجرة وفسوقا
حتى انبرت جشم بن بكر تبتغي ... إرث النبي وتدعيه حقوقا
جاؤوا براعيهم ليتخذوا به ... عمداً إلى قطع الطريق طريقا
طرحوا عباءته والقوا فوقه ... ثوب الخلافة مشرباً راووقا
عقدوا عمامته براس قناته ... ورأوه برا فاستحال عقوقا
وأقام ينفذ في الجزيرة حكمه ... ويظن وعد الكاذبين صدوقا

❖ ❖ ❖ ❖

(٩٨) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ٢٢١.
(٩٩) شرح التبريزي ٢/٤٥٩ – ٤٦٥.
(١٠٠) المرشد إلى فهم أشعار العرب ٢/٥٥١، وانظر ديوان البحتري ٢/١٤٥٢ تحقيق الصيرفي.

المصادر والمراجع

١ـ أبو تمام الطائي ـ نجيب محمد البهبيتي ط . دار الكتب المصرية ١٩٤٥ .

٢ ـ تاريخ ابن الأثير ط . بولاق.

٣ـ تاريخ بغداد ـ أحمد بن طاهر المعروف بطيفور ط . ١٩٦٨ .

٤ـ تاريخ الطبري ـ مصور عن طبعة بريل ١٨٨١م.

٥ـ أخبار أبي تمام ـ الصولي ـ ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٧ .

٦ـ أعتاب الكتاب ـ ابن الابار ـ مطبوعات مجمع اللغة العربية ـ دمشق ١٩٦١ .

٧ـ الحماسة ـ أبو تمام ـ شرح المرزوقي ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٨ ـ ديوان ابن الرومي ـ تحقيق الدكتور نصار ـ مطبعة دار الكتب المصرية .

٩ـ شرح ديوان أبي تمام ـ التبريزي ـ طبع دار المعارف ـ القاهرة .

١٠ ـ شعر الحرب في أدب العرب ـ الدكتور المحاسني ـ طبع دار المعارف مصر ١٩٧٠ .

١١ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ـ الدكتور شوقي ضيف ـ الطبعة السابعة ١٩٦٩ .

١٢ـ المثل السائر ـ ابن الأثير ـ طبعتان سنة ١٩٦٢ وسنة ١٩٥٩ ، بتحقيق الدكتور الحوفي وصاحبه .

١٣ـ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ـ الدكتور عبد الله الطيب ـ طبع دار الفكر ١٩٧٠ .

١٤ـ مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ـ الدكتور حسين عطوان ـ طبع دار المعارف . القاهرة ١٩٧٤ .

١٥ـ الموازنة ـ الآمدي ـ تحقيق السيد أحمد صقر ـ طبع دار المعارف القاهرة ١٩٧٢ .

١٦ـ الوحشيات ـ أبو تمام، طبع دار المعارف، ١٩٧٠ ، القاهرة .

wadod.org

إصدار خاص عن

الخط والمخطوط العربي

تعتزم «الذخائر»
وضمن نشاطاتها الثقافية
أن تصدر عدداً خاصاً
مكرّساً لدراسة وتوثيق
الخط والمخطوط العربي
وما يتعلق بهما، وتحت أبوابها الثابتة

وأسرة التحرير إذ ترحب بما يرد إليها من أبحاث
ودراسات وتحقيقات بهذا الشأن